حول إعجاز القرآن

٢

وضوح المعانى وائتلافها

بقلم السباعى السباعى بيومى

المدرس بدار العلوم

على انتشار الغرابة فى كلام كثير من الفحول ، اختار القرآن كلماته ظاهرة المعنى واضحة المراد ، فوقعت مفهومة حتى لغير الخاصة من الدهماء . ولقد كانت اللفظة ترد فى ثناياه غير بارزة المعنى فى ذاتها للسواد فيشع عليها أسلوبه شعاعا يكشف عن معناها ، ويصوب اليها نوراً يبين من غرضها ومرماها ، فاذا هى كفلق الإصباح . وكثيرا ما كان يعدد الأسلوب من معانى اللفظة الواحدة تعديداً لايخرج على كثرته عن معناها الأصيل . خذ لذلك مثلا كلمة « الهدى » ، فقد جاءت فى قوله تعالى : « أولئك على هدى من ربهم » بمعنى البيان . وفى قوله : « ويزيد الله الذين اهتدوا هدى » بمعنى الإيمان . وفى قوله : « ولقد جاءهم من ربهم الهدى » بمعنى القرآن . وفى قوله : « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا » من الدعاء . وفى قوله : « أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » من الإلهام . وفى قوله : « إن الله لا يهدى كيد الخائنين » من الإصلاح . إلى غير ذلك من معانيها التى قاربت العشرين . ومثلها فى ذلك كلمات كثيرة كالصلاة والرحمة ، والسوء والفتنة والروح والقضاء والذكر والدعاء وغيرها مما ورد متنوع المعانى باختلاف السياق على مثل تلك الكثرة أو يزيد .

وكما كان الأسلوب يسبغ على اللفظة الواحدة معانى تختلف باختلاف السياق ، كان يقبل من الكلمة الواحدة فى الموضع الواحد جملة معان يحتملها

التفسير دون أن تخرج فى أحدها عن صالح التفاسير . من ذلك قوله تعالى : « انفروا خفافاً وثقالا » فقد احتمل تفسيره شبانا وشيبا أو أغنياء وفقراء أو أعزابا ومتأهلين أو نشاطا وكسالى أو أصحاء ومرضى . وكل ذلك سائغ مقبول ، ومنه قوله تعالى : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات » فقد قيل : الظالم : المضيع الواجبات المنتهك الحرمات . والمقتصد : فاعل الواجبات ، تارك الحرمات . والسابق : الذى يفضل المقتصد فيتقرب بالحسنات . وقيل : بل الظالم : مؤخر الصلاة إلى نهاية وقتها ، والمقتصد مصليها خلاله ، والسابق مؤديها أولا . وقيل : بل الظالم : مانع الزكاة ، والمقتصد : مؤتيها وحدها ، والسابق : الزائد عليها بالصدقة . وقد تختلف القراءة فى كلمة فتفسر على كل قراءة تفسيراً صالحا . ومن أمثلة هذا قوله تعالى : « لقالوا إنما سكّرت أبصارنا » فقد قرئ بتشديد سكّرت بمعنى سدت ، وقرئ بتخفيفها على معنى أخذت ؛ ومنه أيضا قوله تعالى : « سرابيلهم من قطران » فقد فسر على أن القطران كلمة واحدة لما تُهنأ به الإبل الجربى ، وعلى أنه كلمتان : إحداهما القطر ، أى النحاس ؛ والثانية آنٍ ، بمعنى ذائب من شدة الحرارة ، ولكن سهلت همزتها .

وعلى كثرة ما عرا التعقيد بنوعيه كلام الفصحاء والبلغاء فخفيت معانيه خفاء كبيرا لاضطراب التراكيب بتعقيد الألفاظ وخفاء أكبر منه لسوء التصوير ، لعدم استقامة التفكير ؛ حتى أصبح تلمسها عسيرا على الجهابذة المتبصرين ، كما هى شواهد ذلك فى كتب البلاغة حيث مواطن النقد والمحاكمات - على كثرة ذلك قد سلم القرآن من نوعى التعقيد على طوله المديد ، وعلى كثرة ما عالج من معان جاوزت فى عددها عدد الآيات البالغ ستة الآلاف ويزيد ، فكان فى كل غرض قصد إليه مستقيم التركيب ، عذب الأسلوب ، واضح المعنى ، صادق التفكير . وهذا حكم يصدق على جميع القرآن من حيث سلامة التراكيب دون استثناء ، وعلى معانيه من حيث الوضوح إلا ما أتى متشابها لحكمة كما سيأتى .

ولقد راعى القرآن فى معانيه الجزئية فوق ما تقدم من صحة ووضوح

وجودَ الروابط والصلات بين كل طائفة يجمع بينها معنى عام ، حتى أصبح التلاؤم شديدا ، والانسجام بينا ؛ وصارت أغلب سُوَره تتصل خواتيمها بفواتيحها اتصال تناسب ، أو اتحاد فى حسن ابتداء ، وجمال انتهاء ، ضامة بينها كلاً متعاشقَ الأجزاء يرمى إلى غرض واحد ، أو إلى أغراض فيها - على تعددها - تناسب وائتلاف ، وهذا شيء واضح للعيان .

فمن الربط بين الفواتيح والخواتيم ما نراه فى سورة الحشر من تسبيح ، وفى سورة الممتحنة من نهى المؤمنين عن موالاة الكفار ، وهما من السور القصار ؛ وما نراه فى سورة النحل من ذكر القرآن ، وفى سورة الأحزاب من ذكر الكافرين والمنافقين والمشركين ، والسورتان متوسطتان ؛ ثم ما نراه فى سورة البقرة عن الإيمان ، وفى سورة آل عمران عن الكتاب وأهل الكتاب ، وهما من السور الطوال .

وعليك أيها القارىء الرجوع إلى هذه الآيات ؛ لترى فيها وجه ما نقول ، والرجوع إلى غيرها متتبعا أوجه الاتحاد . أما التماسُ الربط بين الفواتيح والخواتيم عن طريق التناسب ، فهو يتناول معظم القرآن ، ولذا آثرنا التمثيل للاتحاد دونه ، فارجع إليه فإنه سهل المنال .

وقد بلغ القرآن فى التناسب ، بين ما تضمنت كل سورة من آيات ، درجة الإعجاز ، إذ جاءت كل آية تابعة ماقبلها ، متبوعة بما بعدها ، على اختلاف هذه التبعية على وجوه :

فمنها مايظهر فيه الارتباط بين الآية اللاحقة والآية السابقة من حيث تعلق الكلم بعضه ببعض ، لعدم تمام السابق من غير اللاحق ، أو لتمامه بدونه ، ولكن مع وقوع اللاحق من السابق موقعَ التأكيد أو البدل أو البيان أو الاعتراض ، وهذا كثير جدا لا يحتاج الوقوف على التناسب فيه إلى تفكير .

ومنها مايكاد يظهر فيه كل من السابق واللاحق بمظهر المستقل ، ولكن قليلا من التدبر يكشف عن جهة جامعة بينهما من أنواع العلاقات ؛ ولهذا كان من عادة

القرآن ذكر الرحمة بعد العذاب ، وذكر الرغبة بعد الرهبة ، وذكر الوعد بعد الوعيد ، أو التوحيد والتنزيه بعد الأحكام ؛ ليكون ذلك باعثا على العمل ، أو مبينا عظم أمر النهى ، كما كان من عادته أن يخرج من شيء إلى شيء لمناسبة تسمح بهذا الخروج ؛ ثم تارة يعود إلى ما كان فيه ، فيسمى ماخرج إليه حينئذ استطرادا ؛ وتارة لا يعود فيسمى انتقالا .

مثال الأول : خروجه فى قصة إبراهيم فى سورة الشعراء - وكان الحديث قبلها فى قصة موسى - إلى وصف المعاد عقب قوله على لسان إبراهيم : « ولاَ تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُون ، يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُون » إلى آخر ما ذكر فى وصف اليوم ؛ فإنه عاد بعده إلى قصص الأنبياء بالدخول فى قصة نوح ، وهذا هو الاستطراد .

ومثال الثانى : خروجه فى سورة « ص » - حيث كان حديث الأنبياء - إلى ذكر المتقين بقوله : « هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآب » فإنه أنهى السورة دون أن يعود إلى ذكر الأنبياء ، وهذا هو الخروج .

وقد تخفى المناسبة فى الظاهر فى بعض الآيات ، فتحتاج فى تلمسها إلى فضل علم بأسباب التنزيل ، ومن أمثلة ذلك — وهى قليلة — قوله تعالى : « لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ؛ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ » . فإن هذه الآية وردت فى « سورة القيامة » بين أوصاف اليوم الآخر ، الذى خلصت له السورة ، ولكن السبب فى وجودها يرجع إلى أسرار التنزيل ؛ فقد حدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل عليه ما أنزل من أول السورة إلى قوله تعالى : « وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ » بادر إلى حفظه متعجلا بحرك لسانه ؛ ولما كان فى هذا انشغال له عما هو نازل من سائر السورة ، لفته المولى سبحانه بهذه الآية ، ثم عاد إلى تكملة ما بدأ به . وفى الآية مناسبات أخر ذكرها المفسرون ، ولكنى فضلت عليها ما ذكرت ، كما فضلت التمثيل بهذه الآية من هذا النوع على غيرها ، لأنها أبعدها فى ظاهرها تعلقا بما حواليها .

وكما تخفى المناسبة فى الظاهر ، وهى موجودة ، فتكون الآية محل كلام فى تلمس

المناسبات ، كذلك قد تظهر بعض الآيات بمظهر الإختلاف ولا اختلاف . من هذا ما ذكره سبحانه عمّا خلق منه آدم ، فقد جعله التراب والطين والحمأ والصلصال في كثير من الآيات ، فأشعر ذلك بالمخالفة في ظاهره ، ولكن لا خلاف ؛ لأن مرجع هذه الأشياء كلها إلى جوهر واحد تشكلت منه هو التراب . ومنه قوله تعالى : « فاتقُوا الله ما استَطَعتُمْ » مع قوله : « اتقُوا الله حَقّ تقَاته » . ووجه عدم المخالفة أن الآية الأولى للأعمال والثانية للعقائد . وكذا قوله : « فَإِنْ خِفتُمْ ألا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَة » مع قوله : « ولَنْ تَستَطِيعوا أنْ تَعدِلوا بَيْنَ النّساء وَلَوْ حَرَصتُمْ » . فإن الأولى فى توفية الحقوق ، والثانية فى ميل القلوب . ومن أمثلة هذا النوع فى الموضع الواحد قوله تعالى : « قُلْ أئنّكم لَتَكْفرُون بالذى خَلَقَ الأرضَ فى يَوْمَيْن » إلى قوله : « ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزيزِ العَليم » . فإن ظاهرها يقتضى أن خلق الأرض والسماء استغرق ثمانية أيام ، وهذا ينافى المُجمَع عليه والمصرّح به فى كثير من الآيات من أنها ستة ، ولكن المتدبر هنا يرى أن اليومين الأولين الخاصين بخلق الأرض داخلان فى الأربعة بعدهما ، إذ كان جعل الرواسى وتقدير الأقوات فى يومين أتماهما أربعة ؛ ثم كان خلق السموات فى يومين ثالثين ، أكملا سالفيهما ستة كما هو المعروف . وهناك آيات أخر من هذا النوع لا يخفى التوجيه فيها على ذوى البصائر والعقول ؛ أما الاختلاف بمعنى التناقض فلا وجود له البتة فى القرآن .

تلك كلمة أسلفناها عن معانى القرآن فى صدقها ووضوحها وتلاؤمها وعدم اختلافها ، وإنه لمن الضرورى ـ وقد امتد بنا الحديث هذا الامتداد ـ أن نشفعها كما وعدنا بأخرى موجزة عن مبهمات القرآن ومتشابهاته ، لما لهما من المساس بالموضوع .

فأما المبهمات ، فنقصد بها الآيات ذوات الحاجة إلى إيضاح ، وهى نوعان :

نوع فسره القرآن في موضع غير موضعه ، كقوله تعالى : « صراطَ الذينَ أنعَمْتَ عليهم » . فإنه بيّن هؤلاء فى آية أخرى هى قوله : « فأولئكَ مَعَ الذين أنْعَمَ اللهُ عَلَيْهم من النبيّين والصدّيقين والشهَداء والصّالحين » ، وكقوله : « وإذا بُشّر أحدُهم بما ضَرَبَ للرّحمٰن مَثَلاً » . فقد فسره بقوله : « وإذا بُشّر أحدُهم

بالأنثى »، وكقوله : « أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمةُ الأَنعام إلا ما يتلى عَلَيْكم »، فإنه مفسَّر بقوله : « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ المَيْتة » . . . الآية .

ونوع ترك تفسيره لأسباب ظاهرة ، منها : اشتهاره نحو : « اسْكُنْ أنتَ وزوجك الْجَنَة » . فمعروف أنها حواء ؛ ومنها : التستّر عليه نحو : « ومنَ النَّاس منْ يُعْجِبُكَ قوْلُه فى الحيٰوة الدُّنْيا ويُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِى قَلْبِهِ وهُوَ أَلَدُّ الخِصَام » . فقد نزلت فى الأخنس بن شُرَيْق ، ولم يذكر الله اسمه تستراً عليه ، لمّا علم من أنه سيُسلم ويحُسن إسلامه ؛ ومنها : ألا يكون فى ذكره فائدة ، كما فى قوله : « أوْ كَالَّذِى مَرَّ على قَرْيَة » ، إذ الغرض مطلق التمثيل ؛ ومنها : سوقه مساق العموم ، وإن كان فى الأصل خاصاً ، كما فى قوله عن ضَمرة بن جُنْدُب : « ومَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مهاجراً إلى اللهِ ورَسُولِه ثُمَّ يُدْرِكه الموتُ فَقَدْ وَقَعَ أجرُه على الله » ؛ ومنها : تعظيمه بذكر الوَصْف دون الاسم ، كما فى قوله : « والَّذِى جَاءَ بالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ » ، يقصد النبىّ وأبا بكر ؛ إلى غير ذلك من الأسباب .

وأما المتشابهات فهى ما استأثر الله تعالى بعلمها ؛ إذ ليس فى قدرة العقول الوصول إلى حقائقها ، ولعله لاشىء منها فى القرآن إلا الحروف المبدوء بها بعض السور ، والحكمة الحقة فى وجودها لاتعدو اختبار العباد فى درجات الإيمان ؛ فإن من لم ترسخ عقائدهم يقفون عندها وقفة الزيغ والإلحاد ، كما ذكر الله تعالى ذلك صريحاً بقوله : « هُوَ الَّذِى أنزَلَ عليكَ الكتابَ مِنهُ آيات مُحْكَمات هُنَّ أمُّ الكِتاب وأُخَر مُتَشابهات فَأمَّا الَّذِين فى قُلوبِهم زَيْغ فيتَّبعونَ ما تَشابهَ منه ابتغاء الفِتْنَةَ وَابتغاء تأويله ، ومَا يَعْلَم تأويلَه إلا الله . والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كلٌّ مِنْ عند ربّنا ومَا يذَّكر إلا أولو الألباب » . إذ الصدق أن الوقف فى هذه الآية على لفظ الجلالة ، والكلام بعده ابتداء . أما القول بالعطف الذى يجعل الراسخين فى العلم من العالمين بالتأويل فغير وجيه ؛ لأن من قالوا به — فضلا على تركهم جملة « يقولون » قلقة نابية — لم يصلوا إلى مقنع فى التأويل .

وهذا طرف مما يقولون فى هذه الحروف : فبعضهم يجعلها مأخوذة حرفاً حرفاً من مبادىء أسماء الله تعالى ، أو من مبادىء جمل ينسبها سبحانه إلى

نفسه ، على أن ذلك اختزال ؛ وبعضهم يجعلها من أسماء الله سبحانه وتعالى أو أسماء للسور ؛ وبعضهم يقول إنها مركبة على حساب جمل الأعداد لأشياء موقوتة فى علم الله . وكل هذه أقوال لاغناء فيها كما ترى ، إذ لم تنته إلى معنى معروف .

وأخيراً هناك رأى لا بأس من إيراده ، هو قول من يقولون : إنها حروف ذكرت سرداً ، إعلاماً للعرب ومن بعدهم ، بتركيب القرآن ـ الذى أعجزهم ـ من هذه الحروف المعروفة لهم ؛ ولذلك كثر ذكر الكتاب بعد هذه المبادىء ، ثم يذكرون فى سبب المخالفة بينها شيئاً يهدى إليه الاستقراء ، هو دوران الحروف التى بدئت بها سورة ما فى كلماتها بنسبة ليست لغيرها فى تلك السورة ، ولا لها نفسها فى سورة لم تبدأ بها . على أن أصحاب هذا الرأى قد ظفروا عن طريق الاستقراء أيضاً بأشياء غاية فى العجب ، إذ وجدوا مثلا أن السور التى بدئت بالحروف ثمان وعشرون ، بعدد حروف الهجاء ، وأن الحروف التى دارت فيها نصف تلك الحروف ، وأنها مشت على هذه المناصفة فى تقاسيم كثيرة للحروف معروفة عند القراء . ففيها نصف الحروف المهموسة ونصف المجهورة ، وفيها نصف الحروف الشديدة ونصف الرخوة ، وفيها نصف الحروف الحلقية ونصف الحروف المطبقة ، وهكذا .

إلى هذا الحد وصلت البحوث فى المتشابهات دون جدوى ، وعندى أن الوصول إلى معانيها ينافى الحكمة فى وجودها ، إذ رأيى فى تفسير آيتها هو ما أثبت آنفاً من أن علمها الحق عند الله وحده ، علام الغيوب .

السباعى بيومى